# مجلة كلية الدعوة الإسلامية

العدد الثامن عشر
2001

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1369 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم 2001 من ميلاد المسيح عليه السلام

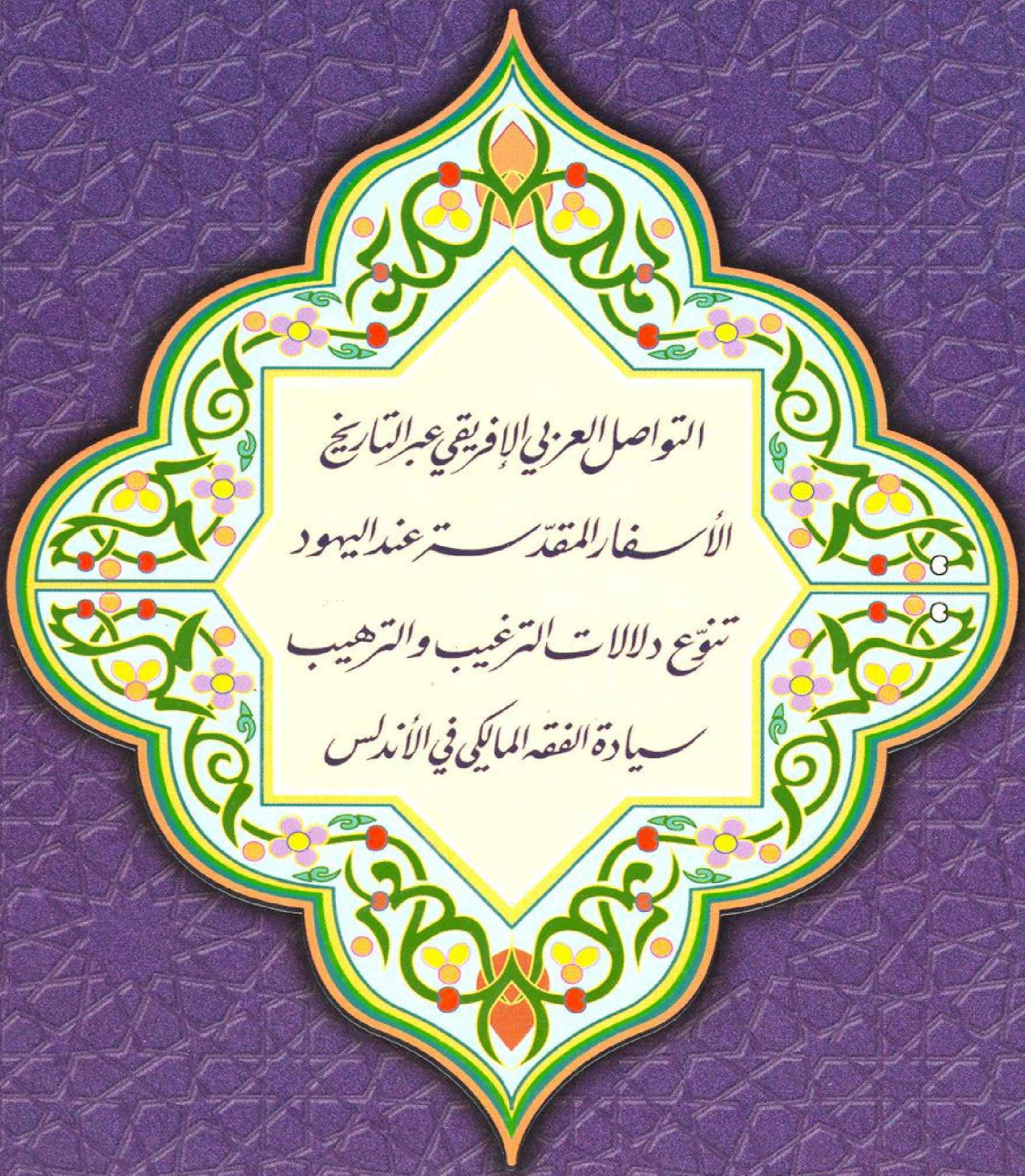

- 1 -

## عملية الإبداع:

يتعرّض المبدع في أثناء عملية الإبداع لصنوف من الإنهاك النفسي والجسدي، وهي حالة عبّر عنها الشاعر الفرزدق بقوله: «أنا عند الناس أشعر الناس، وربّما مرّت عليّ ساعة، ونزع ضرس أهون عليّ من أن أقول بيتاً واحداً»[1]. لذلك كان الشاعر منهم يستعين بما يستدعي القول ويبعثه في نفسه، فذكروا «أنّ الفرزدق إذا صعبت عليه صنعة الشعر ركب ناقته، وطاف خالياً

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، 1/ 209، القاهرة، الخانجي، ط3.

منفرداً وحده في شعاب الجبال، وبطون الأودية، والأماكن الخربة الخالية، فيعطيه الكلام قياده»[2]. وتحدّثوا عمّا يفعله جرير، إذا أراد أن يؤبّد قصيدة، من أنّه كان يصعنها ليلاً «يشعل سراجه، ويعتزل، وربما علا السطح وحده، فاضطجع، وغطّى رأسه؛ رغبةً في الخلوة بنفسه»[3].

فهذه المعاناة التي يتعرض لها المبدع، وهذا الاستعصاء الذي يتّصف به فعل الإبداع، من حيث إنّه يحضر ويغيب، ويتحوّل ويتشكّل، هو الذي حفّزهم على أن يعرّفوا الشعر والشّاعر بقولهم: «الشعر: القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها، والجمع أشعار، وقائله شاعر؛ لأنّه يشعر بما لا يشعر به غيره»[4].

فكان وصفهم للشاعر بأنّه يشعر بما لا يشعر به غيره وليد ملاحظة جيّدة لحالة المعاناة التي يتعرّض لها، حيث يستعصي عليه القول فيغيب، ثم يتيسّر له وينقاد، فهو لا يفارق حالته هذه إلاّ منهك الجسم، مشتّت الأحاسيس والتّصرّفات. ولكنه قد أنجز شيئاً يثير الانتباه، ويميّزه عن غيره.

ـ 2 ـ

## تفسير الظاهرة:

وقد أبدى العرب الأوائل إصراراً ملحوظاً على تفسير الظاهرة خرافياً، مستدين في هذا على رصيد من الأساطير، كانوا يعودون إليه عند تفسير كل ما يستعصي عليهم تفسيره. وفي كنف هذا التوجه قالوا بفكرة شياطين الشعراء[5]، وأنّ لكل شاعر شيطاناً يلهمه، وينفث الشعر على لسانه. ويتركز هذا التفسير

---

(2) ابن رشيق، الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة 1/ 181، القاهرة، مطبعة حجازي، 1934.

(3) نفسه 1/ 181.

(4) الأزهري، تهذيب اللّغة، مادة «شعر»، تحقيق: يعقوب عبد النبي، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

(5) لا شك أنّ الأمم القديمة كانت مهيّأة بشكل جيد لنزوع يدفع أبناءها إلى الاعتقاد في وجود كائنات خفيّة، تمتلك قدرات خارقة على إلحاق النفع والضّرر، ثم تنامى هذا النوع عندهم، وغذّته الخرافات والأساطير، حتى وقر في نفوس المتأخّرين منهم، أنّ هذه الخرافات والأساطير قد حدثت، بل كانت واقعاً عاشه الأوائل، ثم استمرّ تأثيره في المصائر والموجودات.

على القدرة الفائقة، التي يضيفها الخيال العربي إلى عالم الجنّ، وأنّ لهم عالماً يشبه عالم العرب في الجزيرة العربية، فهم يتألّفون من عشائر وقبائل، تربط بينها رابطة القربى وصلة الرحم، فمن قبائلهم الشهيرة قبيلة (مالك بن أقيش)، وقبيلة (بني الشيصبان)[6]. ويزعمون «أنّ الله عزّ ذكره حين أهلك الأمّة التي كانت تسمّى وبار، كما أهلك طسماً، وجديساً، وأميماً، وجساماً، وعملاقاً، وثمود وعاداً، أنّ الجنّ سكنت في منازلها، وحمتها من كلّ من أرادها»[7]. وقد ذكر الأعشى في شعره شيئاً من ذلك، فقال:

أَوَ لَمْ تَرَيْ حِجْراً، وأَنَّتِ م حَكِيمَةٌ، وَلِمَا بِهَا[8]

أَنَّ الثَّعَالِبَ بِالضُّحَى يَلْعَبْنَ فِي مِحْرَابِهَا

وَالْجِنُّ تَعْزِفُ حَوْلَهَا كَالْحُبْشِ فِي مِحْرَابِهَا

بل إنّ الجنّ في تصوّر الجاهليين يتخذون مطايا من حيوانات الصحراء، يمتطونها ويتنقّلون عليها، ولا سيّما الحيوانات التي تعيش في مواطنهم، كالنعام، والظّباء، واليرابيع، والقنافذ، والحيّات[9]، والعقارب، وما شابهها. وأنّ لهم عادات كعادات العرب، فلهم طعماهم وشرابهم، ومقتنياتهم، وأنهم يظهرون للأعراب، ويكلمونهم، ويناكحونهم، ويتخاصمون فيما بينهم، ويثأرون لقتلاهم ويتوجّهون للقضاة ليحكموا بينهم[10]، وأنهم يتفاوتون في أحجامهم وصورهم، وهم طبقات ومراتب، منهم العامّة، وهم جملتهم وجمهورهم، ومنهم الخاصّة، وهم مردة الجنّ، الذّين يكلّفون أصعب المهام وأشقّها، كهذا المارد الذي ورد ذكره في شعر الأعشى، وصوّره منتصباً في عمق البحر، يحرس لؤلؤة كبيرة، ويمنع الغوّاصين من الاقتراب نحوها:

---

(6) أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، ص291، تحقيق: عائشة عبد الرحمٰن، دار المعارف، ط9.

(7) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، 6/ 215، مصر، مصطفى الحلبي، ط2، 1967.

(8) ديوان الأعشى ص251، تحقيق محمد حسين، مصر، المطبعة النموذجية.

(9) الحيوان، 6/ 237.

(10) نفسه، 6/ 224.

وَمَارِدٍ مِنْ غُوَاةِ الْجِنِّ يَحْرُسُهَا ذُو نِيقَةٍ مُسْتَعِدٌّ دُونَهَا تَرَقَا[11]

لَيْسَتْ لَهُ غَفْلَةٌ عَنْها، يُطِيفُ بِهَا يَخْشَى عَلَيْهَا سُرَى السَّارين وَالسَّرَقَا

وخاصّة الجن ومردتهم لهم أمكنة معينة، لعل أهمّها أرض عبقر، و«لذلك قيل لكلّ شيء فائق أو شديد عبقريّ»[12]؛ لأنّ جنّ عبقر متميّزون بالخبث، والعرامة، والقوّة، قال حاتم:

عَلَيْهِنَّ فِتْيَانٌ كَجِنَّةِ عَبْقَرٍ يَهُزُّونَ بالْأَيدِي الْوَشِيجَ الْمُقَوَّمَا[13]

ـ 3 ـ

## شياطين الشعراء:

وفي مجال التصوّر العربي لطاقات الإبداع الشعري، تخيّل العرب أنّ الشاعر يتحرّك بإلهام سحري، وأنّه يقيم علاقة مع قوىً خفيّة، فزعموا «أنّ مع كل فحل من الشعراء شيطاناً، يقول ذلك الفحلُ على لسانه الشعر»[14]. ثم أمعنوا في زعمهم، فسمّوا شياطين بعض الشعراء بأسماء ذكروها، فهبيد هو شيطان عبيد بن الأبرص، وهادر شيطان النابغة الذبياني، ومسحل بن جندل شيطان الأعشى، ولافظ بين لاحظ شيطان امرئ القيس[15]. ثم ازدادوا إمعاناً فيما زعموا، فجعلوا بين شياطين الشعراء قرابة ونسباً، قال الحكم بن عمرو البهراني ضمن قصيدة ذكر فيها من الطّرائف والأباطيل شيئاً كثيراً:

وَتَزَوَّجْتُ فِي الشَّبِيبَةِ غُولاً بِغَزَالٍ، وَصِدْقَتِي زِقُّ خَمْرِ[16]

ثَيِّبٌ، إِنْ هَوِيتُ ذَلِكَ مِنْهَا وَمَتَى شِئْتُ، لَمْ أَجِدْ غَيْرَ بِكْرِ

---

(11) ديوان الأعشى، ص367.

(12) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص234، نهضة مصر، 1965.

(13) نفسه، ويراجع في هذا الشأن مقال كتبه: عبد الغني زيتوني عن: الجنّ وأحوالهم في الشعر الجاهلي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء الأول، المجلد (61)، 1986.

(14) الحيوان، 6/ 225.

(15) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص47، نهضة مصر.

(16) الحيوان، 6/ 81.

بِنْتُ عُمْرٍو، وَخَالُهَا مِسْحَلُ الْخَيْـ ـرِ، وَخَالي هَمِيمٌ: صَاحِبُ عَمْرِو

فزعم البهراني: أنّ هذه الجنّية بنت عمرو صاحب المخبّل السعدي، وأنّ خالها مسحل شيطان الأعشى، وذكر أنّ خاله هميم، وهو همّام، يقصد الفرزدق، واسم شيطانه فيما يقال: عمرو.

ثم استهوت قضية شياطين الشعراء نقّاد الشعراء، فخصّصوا لها فصولاً فيما كتبوا، ثم إن الشعراء أنفسهم سعوا لتثبيت هذا الاعتقاد، إذ كانوا يسوقون في أشعارهم شيئاً من هذه المزاعم، الّتي اتّخذها الرّواة مادة للحديث والمناقلة، فقد ادّعى الأعشى أنّ شيطانه مسحلاً أعانه على هجاء شاعر يقال له: جهنّام، حتى قال:

فَلَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ لِلشَّرِّ أَقْبَلُوا وَثَابُوا إِلَيْنَا مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمِ[17]

دَعَوْتُ خَلِيلِي مِسْحَلاً، وَدَعَوْا لَهُ جُهُنَّامَ جَدْعاً لِلْهَجِينِ الْمُذَمَّمِ

ويزعم حسان زعماً كهذا، فيقول:

لاَ أَسْرِقُ الشُّعَرَاءَ مَا نَطَقُوا بَلْ لاَ يُوافِقُ شِعْرَهُمْ شِعْرِي[18]

إِنِّي أَبَى لِي ذَلِكُمْ حَسَبِي وَمَقَالَةٌ كَمَقَاطِعِ الصَّخْرِ

وَأَخِي مِنَ الْجِنِّ الْبَصِيرُ إِذَا حَاكَ الْكَلاَمَ بِأَحْسَنِ الْحِبَرِ

ولا محالة أنّ العرب قبل الإسلام خلعوا على الشاعر صفات الكاهن، والعرّاف، والحكيم، والساحر؛ لأنه ينطق بالقول الفصل، وترجع إليه القبيلة في كلّ شأن من شؤونها، ويتّقي الناس غضبه، ويخشون قدرته على إلحاق الأذى والإيلام. فعل العرب في ذلك الزمن كل هذا؛ لأنّ المسافة بين السحر، والشعر، والدين مسافة جدّ قريبة في المعتقدات البدائية. فالشعر ضرب من السحر، في هذه المعتقدات، والكهّان «كانوا يعرفون باسم الشعراء»[19]، قبل الإسلام، ومن ثم كان الهجاء ممارسة شعائرية بالكلمات «هدفها إيقاع الأذى

---

(17) ديوان الأعشى، ص125.

(18) ديوان حسّان، شرح عبد الرحمٰن البرقوقي، ص174، المكتبة التجارية الكبرى.

(19) ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي، ص355، بيروت، دار الجيل، ط8، 1996.

بالخصم، وتعطيل قواه، وكان الشاعر إذا تهيّأ لإطلاق هجائه، يلبس زيّاً خاصّاً شبيهاً بزيّ الكاهن، وينشد شعره الذي كان شكلاً من أشكال السحر»[20].

ـ 4 ـ

## توجيه الفكرة وتعديلها:

فلمّا تبدّى الإسلام ديناً، فإنّ أوّل شيء قوبل به رسول الله ﷺ عند نزول القرآن ادّعاؤهم أنّه شاعر، وساحر، وكاهن، وأنّ القرآن شعر، وسحر، وكهانة؛ لما ساد بينهم من أنّ الجّني إذا ألف إنساناً «تعطّف عليه، وخبّره ببعض الأخبار»[21]، فالقرآن فيما يزعمون شكل من أشكال الشعر، ينشده شاعر به أثر من مسّ الجنّ وخبطه. فلا غرو أن يتعرّض القرآن لهذا الجدل في آيات كثيرة، تتحدّث عمّا يخالجهم من إحساس وثني، منها: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾[22]، ومنها: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[23].

وليكون الجدل ولوداً مثمراً شرع الإسلام يحدّد مفاهيمه ويثبّتها، في هذه المسألة وفي المسائل المهمة الأخرى، فكانت كلمة «الشاعر» الشعر «من ضمن الكلمات التي ضبطت دلالتها ضبطاً يساير مطالب الدين ورؤيته، ولا يتعارض مع معارف القوم عن هذا الشعر. انطلق هذا التحديد من توجيهات النّصّ القرآني وارتكز على الثوابت الآتية:

1 ـ نفي صفتي الشعر والكهانة عن الرسول ﷺ، فقد قال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿41﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿42﴾﴾[24]، فذكر ما هو مرغوب عنه، وهو اتّهام الرسول الكريم بأنّه شاعر أو كاهن، وقرن ذلك

(20) جابر عصفور، سحر المعلقة، مقال منشور في مجلة العربي، العدد (426)، 5/ 1994.
(21) الحيوان، 6/ 203.
(22) سورة الصّافات، الآية: 36.
(23) سورة الأعراف، الآية: 132.
(24) سورة الحاقّة، الآيتان 41 ـ 42.

بما هو مرغوب فيه من التذكّر والإيمان، فيكون أدنى أحوال المخاطبين بهذا الخطاب شروعاً في التحوّل من هوى النفس إلى اتّزان العقل.

2 ـ تأكيد أنّ القرآن حقيقة مقرّرة، وعظة واضحة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾[25]. ولا يتّصف بما تتّصف به ضروب القول التي ينشئها البشر، لأنّه تنزيل ﴿وَرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[26].

3 ـ دحض المزاعم التي تَنْسُبُ للشياطين نفوذاً إلى الملأ الأعلى، وقدرةً على استراق السمع، وتمكّناً من التنزّل بالخبر الصادق، فقال: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[27]. وقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾[28].

4 ـ إثبات أنّ محمداً ﷺ صادق فيما يقول، وأنّه يمثّل الإنسان في أسمى حالات كماله البدني، والخلقي، والعقلي. قد اصطفاه الله؛ ليبلّغ عنه، واختصّه بالوحي؛ أيّ بالمعرفة التلقائية المطلقة لموضع لا يشغل التفكير، وغير قابلة للتفكير[29] أيضاً. وحقيق بمن أعدّ لهذه الغاية ألاّ يكون شاعراً؛ لئلا يختلط لديه اليقيني بالوهمي في أثناء عملية التّلقّي، فهذا الإعداد هو الذي يفسّر قوله جلّ ذكره في حقّ محمد ﷺ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾[30].

5 ـ تحديد الصّفات المرتضاة للشّعر والشّاعر، وتركيزها في سورة قرآنية تحمل اسمهم، ورد فيها قوله جلّ من قائل: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

---

(25) سورة يس، الآية: 69.

(26) سورة الشعراء، الآيات 192 ـ 195.

(27) سورة الشعراء، الآية: 212.

(28) سورة الشعراء، الآيات: 221 ـ 223.

(29) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ص168، بيروت، دار الفكر.

(30) سورة يس، الآية: 69.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿227﴾﴾[31].

فدلّت ألفاظ النّصّ القرآني على ما كان الكلام مسوقاً لأجله، بأن صنّفت الشعراء صنفين: صنفاً يقول ما لا يفعل، وهؤلاء هم شعراء النفاق والكذب، وصنفاً يجمع بين صدق القول، وصالح العمل، وكثرة الذكر، وهؤلاء هم الشعراء الأتقياء المسلمون، الذين لم يَضِلّوا ولم يُضَلُّوا.

وفي ظلال هذا التوجيه القرآني شرع ﷺ يدعو الشعراء لممارسة الفعل الشعري، بوصفه فعلاً يؤمّن وظيفة إعلامية، قوامها الردّ، والتّوضيح، والمناقشة، والدّفاع، والهجوم[32]؛ ليكون التأثير الشعري نصيراً لاقتناع مرتقب، وكُلّ بثّه في النفوس إلى صاحب الدعوة والتبليغ، فأكّد ﷺ هذا التوجّه بالقول، والفعل، وتصحيح التّصوّر.

1 ـ فقد قال ﷺ يخاطب الأنصار: (ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله ﷺ بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم)[33].

2 ـ وانتدب نفراً من شعراء المسلمين؛ ليقفوا في وجه الشعراء المشركين كان منهم حسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد اللّه بن رواحة، «فكان حسّان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم، بالوقائع والأيام والمآثر، ويعيّرانهم بالمثالب، وكان عبد اللّه بن رواحة يعيّرهم بالكفر... فكان في ذلك الزّمان أشدُّ القول عليهم قولَ حسّان وكعب، وأهونُ القول عليهم قولُ ابن رواحة، فلمّا أسلموا وفقهوا الإسلام، كان أشدُّ القول عليهم قولَ ابن رواحة»[34].

3 ـ وصحّح رسول الله ﷺ تصوّر القوم لمفهوم الإبداع الشعري، فأبطل فكرة

---

(31) سورة الشعراء، الآيات 224 ـ 227.

(32) وجيه فانوس، العقل النقدي الأدبي عند العرب، مقال منشور في: مجلة الفكر العربي، العدد (72)، 4/ 1993.

(33) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 4/ 1351، طبعة دار الشعب، 1969.

(34) نفسه، 4/ 1352.

شياطين الشعراء؛ لمكانها من عقائد الوثنيين، وآل بها إلى رؤية تجعل الفعل الشعري المرتضى مدداً من قوّة روحية مقدّسة، وعبّر عن هذه الرؤية بقوله لحسان بن ثابت، وهو يحرّضه على هجاء المشركين: (أهجهم أنت. فإنّه سيعينك عليهم روح القدس)[35].

ومن ثم فإنّ الإسلام لم يبطل سجع الكهّان؛ لأنّه كان نثراً متخلّفاً من الناحية الفنّية؛ بل أبطله «لأنّه عمل ذو طابع سحري، وطقس من طقوس العقيدة الوثنية، يرى في الكلمات المركبات على ذلك النحو خواصّ روحية، ونوعاً من القدرة المؤكّدة على إحداث تأثير سحري»[36].

ولا محالة أنّ هذا المفهوم الذي استحدثه الإسلام مفهوم لم يعمّر طويلاً، فقد خمدت فكرة شياطين الشعراء، ثمّ اتّقدت جذوتها مرّة أخرى، واتّصلت بجذورها، تذكيها أوهام الشعراء، ومزاعم الرّواة والمتأدّبين.

ـ 5 ـ

## تفسير التّفسير

على أنّ الأمر في مثل هذه المزاعم، إنّما يقرّره مكان الخرافة من عقل الفرد أو الجماعة، بحيث يكون للخرافة مكان بارز في طوايا النفس، والعقل، والخيال، من جهة نقل المعلومات وتمثّلها، ومن جهة تفسير الأحداث وتعليلها[37]. وممّا لا يكاد يدفع أنّ العقل العربي خضع لكثير من الأفكار والتّصوّرات الخرافية المتوارثة، وتلك إن عُدَّتْ كانت فكرة شياطين الشعراء أوّل ما يُعَدّ منها؛ لاندراجها ضمن اعتقاد بوجود كائنات خفيّة تمتلك قدرات على إحداث النفع وإيقاع الضّرّ. وللعرب إزاء هذه الاعتقادات قصص كثيرة متنوّعة،

---

(35) نفسه، 4/ 1359.

(36) أحمد محمد بدوي، علاقة الحبّ بالمعتقدات في شعر الأوائل، مقال منشور في: مجلة الشعر، العدد (24) سنة (1981).

(37) إبراهيم بدران، سلوى الخماش، دراسات في العقلية العربية ـ الخرافة ـ، ص13، بيروت، دار الحقيقة، ط3، 1988.

ذكرها أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب[38]، وتعرّض لها ابن هشام في السيرة[39]، وتعقّبها الجاحظ في كتاب الحيوان تعقّباً مفيداً، بناه على شعر للحكم بن عمرو البهراني «ذكر فيه ضروباً كلّها طريف غريب، وكلّها باطل والأعراب تؤمن بها أجمع»[40].

ولئن اتّخذ العرب الأوائل من هذه التّصوّرات الخرافية تفسيراً لبواعث الإبداع الشعري، فإنّ الجاحظ راح يفسّر هذا التفسير ذاته، بأن نزّل الظاهرة في محيطها الاجتماعي، والنفسي، والثقافي.

فردّها أوّلاً إلى الانفراد، والابتعاد عن الإنس، وطول المقام في الأماكن الخالية، وكثرة الوساوس، وقلّة الأشغال، قائلاً: «أصل هذا الأمر وابتداؤه، أنّ القوم لمّا نزلوا بلاد الوحش عملت فيهم الوحشة؛ ومن انفرد، وطال مقامه في البلاد والخلاء، والبعد عن الإنس ـ استوحش، ولا سيّما مع قلّة الأشغال والمذاكرين، والوحدة لا تقطع أيّامهم إلاّ بالمنى والتفكير، والفكر ربّما كان من أسباب الوسوسة»[41]. ثمّ يتوسّع الجاحظ في تفسيره الاجتماعي النفسي، ويضيف إلى ما تقدّم أنّ الإنسان إذا استوحش «تمثّل له الشيء الصّغير في صورة الكبير، وارتاب، وتفرّق ذهنه، وانتقضت أخلاطه، فرأى ما لا يرى، وسمع ما لا يسمع، وتوهّم على الشيء اليسير الحقير، أنه عظيم جليل»[42].

وهذا الذي ذكره الجاحظ من أمر الانفراد، والوسوسة، والخوف، والاضطراب، والوهم، وتمثّل الشيء على غير صورته، ممّا هو مترسّخ في النّفوس متمكّن منها، ولا سيّما إذا اعتقد القوم أنّ المكان الذي يعيشون فيه، أو الذي يجتازونه، تعمره كائنات، تترصّد بمن يقترب منه.

ويضيف الجاحظ إلى ما سبق تفسيراً طبيعياً، يرجعه إلى خصائص في

---

(38) انظر: جمهرة أشعار العرب، الفصل الخاص بقول الجن الشعر على ألسنة العرب، ص43.

(39) انظر: سيرة ابن هشام، 1/ 344 وما بعدها، عيسى الحلبي، 1964.

(40) انظر القصيدة وشرحها في الحيوان، 6/ 80، وما بعدها.

(41) نفسه، 6/ 249.

(42) نفسه، 6/ 250.

المكان، وخصائص في الزمان، إذ «في النّهار ساعات ترى الشّخص الصّغير في تلك المهامه عظيماً، ويُوجَد الصوت الخافض رفيعاً، ويُسمَع الصّوت الذي ليس بالرّفيع مع انبساط الشمس غدوة من المكان البعيد، ويُوجَد لأوساط الفيافي، والقفار، والرّمال، والحرار، في أنصاف النّهار مثل الدّويّ، من طبع ذلك الوقت، وذلك المكان، عندما يعرض له»[43].

ولا يكتفي الجاحظ بهذا التّفسير النفسي، الاجتماعي، الطبيعي، لفكرة الكائنات الخفيّة وتصوّراتها، حتى يقرنه بتفسير تربوي ثقافي، مؤدّاه: أنهم «جعلوا ما تصوّر لهم من ذلك شعراً تناشدوه، وأحاديث توارثوها، فازدادوا بذلك إيماناً، ونشأ عليه الناشئ، ورُبّي به الطّفل، فصار أحدهم حين يتوسّط الفيافيَ، وتشتمل عليه الغيطان في اللّيالي الحنادس ـ فعند أوّل وحشة وفزعة، وعند صياح بوم، ومجاوبة صدًى، وقد رأى كلّ باطل، وتوهّم كلّ زور، وربّما كان في أصل الخلق والطّبيعة كذّاباً نفّاجاً، وصاحب تشنيع وتهويل، فيقول في ذلك من الشعر، على حسب هذه الصفة، فعند ذلك يقول: رأيت الغيلان، وكلّمت السعلاة، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول: قتلتها، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول: رافقتها، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول: تزوّجتها». وهم «ليس يلقون بهذه الأشعار، وبهذه الأخبار إلاّ أعرابياً مثلهم، وإلاّ عامّياً لم يأخذ نفسه قطّ بتمييز ما يستوجب التكذيب والتّصديق، أو الشّكّ»[44].

وفي كلّ الأحوال، فإنّ هذا التفسير الذي قدّمه الجاحظ تفسير مقنع؛ لأنّه يتلاءم مع منطق العقل والإدراك، ويتوافق مع رؤى أجيال ما عاد يرضيها اختزال عمل منظم إلى خرافة صدّقها رواة الأخبار، وعوام الناس من الرجال والنساء، في حقبة من حقب التاريخ الأدبي.

---

(43) نفسه، 6/ 248.

(44) نفسه، 6/ 250 ـ 251.